مجالي الأدبِ المؤدّب في الفصول والغايات
لأبي العلاء المعرّيّ

أ.د.عيسى علي العاكوب- عضو المجمع*

تقصد هذه الورقةُ إلى إبراز بعض ملامح ما نسمّيه "الأدب المؤدّب" في كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء المعرّيّ. وتنطلق أساسًا من فَرْضيّة تبدو على قدر كبير من الأهميّة، وتتمثّل في أنّ أبا العلاء أعدّ نفسَه منذ مطلع حياته ليكون معلِّمًا للعربيّة بمعجمها الأصيل الواسع جدًّا وعلومها المختلفة، وللحكمة والحياة العمليّة السّويّة المفضية إلى طيب السّيرة وحُسْن المنقلَب.

وتتّخذ الورقةُ وسيلةً لتحقيق هدفها مناقشةَ جملةِ قضايا تحسب أنّ إيضاحها وبلورتها وبَسْط القول في ملامحها تفلح متكاملةً في جلاء القضية التي

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات في مجمع اللغة العربية بتاريخ ٢٦ صفر ١٤٣١هـ - الموافق ١٠ شباط - ٢٠١٠م.

تشاء تقديمها للمتابع. وهذه القضايا هي:

أوّلاً ـ أبو العلاء العالِمُ المعلِّمُ للعربيّة والحكمة الإيمانيّة.

ثانيًا ـ كتابُ الفصول والغايات والمقاصدُ التعليمية فيه.

ثالثًا ـ فضاءات علوم العربيّة في الفصول والغايات:

١ ـ فضاء اللغة معجمًا وأساليب.

٢ ـ فضاء النحو والصّرف.

٣ ـ فضاء العروض والقوافي.

رابعًا ـ دروس الإيمان في الفصول والغايات.

خامسًا ـ الكلمة الأخيرة.

أوّلاً ـ أبو العلاءِ العالِمُ المعلِّمُ للعربيّة والحكمة الإيمانيّة:

تشهد آثارُ أبي العلاءِ الشعريّةُ لشاعرٍ محلِّق في آفاق القريض. فقد كان المنظومُ عنده فضاءً لروحٍ قويّ الملاحظة دقيقِ الفحص للقضايا متألِّمٍ من صفعات وجودٍ يحسُّ بتضاريسه إحساسًا قويًّا، لكنّه يعزّ عليه فهمُه بمنطق العقلِ الجدليّ التحليليّ الرّابط للنتائج بالمقدّمات والمسبَّبات بالأسباب. وفي الحسبان أنّ امتحانَ النفس أو القدرة الذي ابتُلي به أبو العلاء وتجلّى في مظاهر كثيرة في شعره ونثره وسلوكه يجيء تعبيرًا عن الإحساس بالقدرة ضمن العَجْز. فأبو العلاء عند نفسه قادرٌ قدرةً يفوق بها غيرَه، وهو نفسه أيضًا عاجزٌ عجزًا

تلتوي الظنونُ في ماهيّته أمامَ صنيع مَنْ ﴿خلقَ السّماوات والأرضَ وجعَلَ الظّلماتِ والنّور ثمّ الذين كفروا بربِّهم يعدلون﴾ (سورة الأنعام، الآية ١).

نعم، في مضمار الشعر الأخّاذ أعدّ أبو العلاء نفسَه ليكون معلِّمًا للعقل والحياة والفنّ، أمّا في ميدان النثر الفنّي الجميل فوجد مندوحةً لتعليم أشياءَ كثيرة، في طليعتها علومُ العربيّة معجمًا وأساليبَ ونحوًا وصرفًا وعَروضًا.

وفي مجالَي الشعر والنثر يجدُ المرءُ في نفسه دافعًا إلى القول إنّ أبا العلاءِ كان ينشُد العَلاءَ، فوجدَه في شخصيّة من يعلِّمُ النّاسَ الخيرَ، وهو مطمئنٌّ إلى أهليّته لذلك. ويعني الاطمئنانُ إلى الأهليّة هنا، في وجهٍ من الوجوه، إعدادَ النفس بضروبٍ من المجاهدة تمضي في اتجاهين اثنين: أوّلُهما الإقبالُ بنَهَمٍ على التحصيل بقلبٍ عَقولٍ ولسانٍ سَؤول، كما قالوا في شأن بعضهم. ويتجلّى القلبُ العقولُ عنده في اعترافه الذي يقول فيه: "ما سمعتُ شيئًا إلاّ حفظتُه، وما حفظتُ شيئًا فنسيتُه". وثانيهما إقدامُ النفسِ على المكروه، وهي لا تكره إلاّ ما خالف هواها وجافى طبيعتَها. وفي حياة أبي العلاء العمليّة ما يدفع إلى القول إنّه جارى إلهامَ نفسِه في تقواها، لا في فجورها. ويعني الأمرانِ تهذيبَ العقل واللّسان بتحصيل العلوم، وتهذيبَ النفس بهجر المنبوذِ المطَّرَحِ في الفكْرِ والقولِ والعمل.

هكذا انتظر أبو العلاءِ من غرسةِ علمه أن تُثمر نوعَيْن من الثّمر، كلٌّ منهما مهمٌّ لنفسه ولمجتمعه؛ وهما ضبْطُ معاقدِ علومِ العربيّة، وإنماءُ كرَم النفوس

وزَكائها. وحَلْقةُ الوصل بين الأمرين، فيما نرى، إدراكٌ عميقٌ لسلوكِ الكتابِ العزيز وكلامِ النبوة في تعليم الخير والفضيلة والكمال. فإنّ الكلامَ الإلهيَّ وكلامَ النبوّةِ كليهما يقولانِ إنّ التعليم المقوّي لإنسانيّة الإنسان يكون بالأداءِ الجميل والصّياغةِ المُحكمة والتعبير المنشِّط لآلاتِ الإدراكِ عند الإنسان. وغيرُ بعيدٍ عن محفوظ متوسّطي الثقافة عندنا شهادةُ الوليدِ بنِ المغيرة الجاهليّ في البيان القرآنيّ الممتلِكِ، في رؤيته، للحلاوة والطّلاوة. ولعلَّ من تعليمِ اللهِ الإنسانَ ما لم يعلَمْ إدراكَنا، اليومَ، أنّ ابنَ المغيرة أُخِذ بالأداءِ القرآنيّ الأخّاذ، أي الحامِلِ اللغويّ الجميل، في الوقت الذي كان فيه محترسًا من أخْذ المعنى الجميل، معطِّلاً آلةَ الاستجابةِ له.

ويذهبُ بنا حديثُ الحلاوة والطّلاوة في البيان العالي إلى القول إنّ أبا العلاءِ أخذَ نفسه في حياته بمقولةِ "التعليم بالجمال"، المفضيةِ فيما نرى إلى ما سمّيناه "الأدبَ المؤدِّب"، أي المعلِّمَ المربّي. فقد كان الرّجلُ مدركًا أنّ النفس تسهل مقادتُها حين تُقاد بما وافق هواها، وجانس طبيعتَها، ويسهل عليها تحصيلُ العلم حين يُساق إليها في قوالبَ تعبيريّةٍ محرِّكةٍ لِجِبلَّتها هازّةٍ لطبعها.

ولعلّه، من هذه الوجهة، شاء أن يكون في "الفصول والغايات" خاصّةً معلِّمًا لعلوم العربيّة وللحكمة الإيمانيّة في قوالبَ أدبيّةٍ من الطراز الرّفيع.

ثانيًا ـ كتابُ الفصولِ والغايات والمقاصدُ التعليميّة فيه:

يأتي عنوانُ الكتاب "الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ" ليقول لنا إنّ مادّةَ الكتابِ هي فصولٌ أدبيّةٌ نثريّةٌ منتهيةٌ بنهاياتٍ موحّدةٍ موزّعةٍ على أحرف الهجاء. فثمّة فصولٌ غاياتُها، أو نهاياتها، الهمزةُ؛ إذ ينتهي كلُّ فصلٍ منها بكلمةٍ نهايتُها همزة. وهكذا تكونُ غاياتُ الفصولِ كلماتٍ من قبيل: الأباء، الإباء، الحوَبْاء، الأَطْباء.. إلخ.

وثمّة فصول أخرى غاياتُها الباء؛ إذ تنتهي بكلماتٍ مثل: السّحاب، ارتياب، الأحباب، الذّاب، الذّهاب.. إلخ، وهكذا.

والموجودُ المحقّقُ من الكتاب جزءٌ واحدٌ فقط ينتهي بفصلٍ غايتُه خاء. وينبّه العنوانُ أيضًا على موضوع الكتاب وأنّه في تمجيد الله سبحانه وفي المواعظ.

وتنبئ طريقةُ عَرْض مادّة الكتاب عن أنّ المؤلّف كان يملي فصولَه على تلاميذه، فيختم الفصْلَ بالغاية، ويعمد إلى شَرْح الغريب الوارد في تضاعيف الفصل. حتّى إذا انتهى من الشّرْح والتفسير عاد إلى الإملاء مشيرًا إلى ذلك بكلمة "رَجَع".

أمّا مادّةُ الكتاب نفسُها فإنشاءٌ نثريّ غايةٌ في إحكام النَّسْج ومتانة السَّبْك وجودة الاختيار، وقد ملأه مؤلِّفُه "بشتّى العلوم من اللّغة والأدب والعروض والصّرف والتّاريخ والحديث والفقه والفَلَك وعِلْم النجوم وغير ذلك مما لم

يسبق لغيره جَمْعُه بالطريقة التي سلكها" (مقدّمة الكتاب، ص: هـ، و).

وتُظهر المادّةُ العلميّة في الكتاب وأسلوبُ أبي العلاء في عَرْضها وتقديمها احتشادًا وتهيُّؤًا وإعمالاً قويًّا للعقل والحافظة فِعْلَ الكريم الذي يقصد عقائلَ مالِه يُتحف بها العُفاةَ والطّالبين، جاعلاً من ذلك شاهدًا على خليقة متأصِّلة وطبيعة غلّابة.

ولا يجد المتأمّلُ غضاضةً في زَعْم أنّ أبا العلاءِ، الذي شاء لنفسه أن يكون معلِّمًا، حكَمَتْه في "الفصول والغايات" بواعثُ تعليميّةٌ واضحةُ المعالم، فكان صنيعُه في الكتاب مثالاً جيّدًا للأدب المؤدّب الذي يحرص على توصيل المعارف والخبرات في قالبٍ أدبيّ جاذبٍ للنفوس موقظٍ للحواسّ مُبهجٍ للعقل.

ثالثًا ـ فضاءاتُ علومِ العربيّة في الفصول والغايات:

تنبئ مؤلّفاتُ أبي العلاء الشعريّةُ والنثريّة، كما بدا فيما قدّمنا، عن عالمٍ كبير وداعيةٍ إلى الصّلاح والاستقامة قليل النظير في تاريخ الأدب العربيّ. ويدرك قارئ آثاره سريعًا أنّه يَعُدّ اللغةَ العربيّة وعلومَها مِرْقاةً يصعد عليها النّوابغُ والملهمون إلى مصافَّ عاليةٍ فيما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون. وفي مستطاع المعرِّف بأبي العلاء أن يقول إنّه كان يرى في التأليف ونَشْر العِلْم وسيلةً لمرضاة الله سبحانه وخلاصًا من سَخَطه وغضبه. كيف لا، وهو الذي يقول: "عَلِمَ رَبُّنا ما عَلِمَ، أنّي ألّفتُ الكَلِمَ آمُلُ رضاه المسلِّمَ، وأتّقي سخَطَه المؤلم. فهَبْ لي ما أبلغُ

رضاك من الكَلِمِ والمعاني الغِراب" (الفصول والغايات، ص ٦٢).

والصحيحُ أنّ المعارف التي يحرص أبو العلاء على تقديمها لقارئي كتابه هذا كثيرةٌ، ويحتاج حصْرُها وضبْطُ منهجه في تقديمها إلى فضاء أكبر من هذا المتاحِ لنا هنا. وقد أشرنا من قبْلُ إلى أنّنا سنديرُ حديثَنا على علوم العربيّة الأساسيّة، ولن يكون منّا وقوفٌ عند المعارف الأُخَر الكثيرة التي انطوى عليها الكتابُ وقصدَ المؤلّفُ إلى نشرها وتعليمها. وفضاءاتُ علومِ العربيّة التي سنقف عندها هي:

١ ـ فضاءُ اللغةِ معجمًا وأساليب:

يبدو هَمُّ تعليمِ العربيّة مفرداتٍ وأساليبَ مستبدًّا بنفس أبي العلاء. بل يستطيع المتأمّلُ أن يقول باطمئنانٍ إنّ الرّجلَ نصَبَ نفسَه ليكون محييًا لهذه اللّغة ألفاظًا ومعانيَ وطرائق تعبير . وكأنه كان في ضيقٍ من دُروسِ القَدْر الأكبر من معجمها وغيابه عن الألسنة والشّقاشق، فشاء هو أن يعيدها سيرتَها الأولى بجعل كثيرٍ من مادّتها ومخزونها مادّةً لتعليم طائفة من التلاميذ، ربما تزدهرُ العربيّة ويطيب جَناها بما سيقدّمونه هم أيضًا لمن يتتلمذ عليهم.

ويُفهَم ههنا أمرٌ مهمٌّ، وهو أنّ أبا العلاء كان على أنّ اختيار المادّة اللغوّية الجيّدة وتقديمَها في قوالبَ أدبيّةٍ راقيةٍ وإفهامَ المتعلِّمين دقائقَها وأسرارَها، من أسباب تقويةِ العربيّة وشَدِّ أزرها ومضاعفةِ نَمائها. وليس بمستنكَرٍ، فيما نرى،

أن نزعم أنّ أبا العلاءِ كان وحْدَه مدرسةً لإحياء العربيّة وإنماء شجرتها. ونكتفي هنا بتقديم فصلين من "الفصول والغايات" يوضحان طبيعةَ المادّة اللغوّية التي كان يقدّمها والنّهجَ الذي سلكه في تقديمها:

آ ـ يقول في فصل: "أنتَ، أيّها الإنسان، أغَرُّ من الظّبي المقْمِر، لستَ بالعامر ولا المعتمر، ولا في الصّالحات بالمؤتمِر. أحسِبْتَ الخيرَ ليس بمُثمر؟ بلى، إنّ للخير ثمرةً لذّتْ في المطعم، وتضوّعتْ لِـمَنْ تنسَّم، وحسنتْ في المنظور والمتوسَّم، وجاوزت الحدَّ في العِظَم، وبقيت بقاءَ السَّلَم. فما ظنُّكَ بثمرةٍ هذي صفتُها لا يمكنُ السّارقةَ كَفْتُها، ولا تذوي في الوقدة نضرتُها، قد أمِنَتْ أجيجَ القَيْظِ وصَنابرَ الشّتاء. غاية.

تفسير: أغَرُّ من الظّبي المقْمِر: مثَلٌ. ويقال إنّ الظّبي يُصادُ في الليلة المقمرة. الكَفْتُ: الضمُّ والجمعُ. (الفصول والغايات، ص ٦).

ب ـ ويقولُ في فصل آخر: "اللهمّ، اجعَلْ ذِكْرَكَ عَذْبًا على عَذَبةِ لساني، ومخلَّدًا طولَ حياتي في خلدي، ونَفَسًا عند الكُرْبة لنَفْسي، ومُنْبِطًا للحِكْمة في قليب قلبي. وأسألُك عصمةً من الذّنوب؛ فإن لم أكنْ أهلاً للعصمة فلتكنْ جرائمي معكَ لا مَعَ عبادِك؛ فإنّك الحليمُ الكريم، وإنّا معشَرَ الإنس فينا سوءُ ظفرٍ وقلّةُ احتمال. واجعَلْ، ربِّ، طاعتَك سيفي على العدوّ وسِناني، وزادي في السَّفَر وراحلتي، وأُنسي في الوحدة ولَذّتي. وأعوذُ بك، منشئَ الخَلْق، من أُذُن

كأذُنِ طَوِيّ الزّجاج الذي ماؤه حِبرٌ ورِشاؤه يَرَاعٌ، له أربعُ آذانٍ يُجذَبُ بها فيتبعُ، وهو مع ذلك لا يسمع؛ ومن فَمٍ كالوِجار ما طُرِح فيه لِهَمَه؛ ومن يدٍ كيدِ الصَّبيّ، تبهشُ إلى كلّ شيء. وليكنْ لَيْلي فيكَ ليلَ أنقدَ ونهاري لك نهارَ الطَّيرِ الغِراث. غاية

تفسير: عَذَبةُ اللّسان: طَرَفُه. والخَلَدُ: النفسُ. وتَبْهَشُ: تمتدّ إلى كلّ شيء. وأنقدُ: هو القُنْفُذُ، ويُقال: ابنُ أنْقَد، وبات بليلة أنْقَدَ: إذا لم ينم (الفصول والغايات، ص ١٧٣).

وتعنّ لنا من تأمّل الفصلين بعضُ الأمور المتّصلة بتعليم المعجم العربي مفرداتٍ وأساليبَ:

١ـ غلَبَةُ السّجع، الذي هو "في البديع العربيّ اتفاقُ الفاصلتين في الحرف الأخير. والفاصلةُ هي الكلمةُ الأخيرةُ من كلّ فقرة" (مجدي وهبة: معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، ص ١١١).

٢ ـ غلَبَةُ الجناس، الذي "هو في البديع العربي تشابُهُ اللفظين في النطق مع اختلافهما في المعنى" (معجم المصطلحات، ص ٧٨).

٣ ـ غلبةُ التّشبيه والتمثيل الذي يُراد منه الإيضاحُ والبيانُ وتحسينُ الخير وتقبيح الشّر.

٤ ـ اعتمادُ المادّة التّربويّة التأديبيّة التي تحضّ على فِعْلَ الخير وتَرك المنكر

والارتقاء بالإنسان إلى حيث يكون مُرْضيًا لربّه سبحانه، مُحسِنًا إلى نفسه، وإلى الخلق جميعًا.

٥ ـ تطعيمُ المادّة التعليميّة ببعض الغريب الذي يعمد المؤلّف إلى شَرْحه في نهايات الفصول.

٦ ـ اعتمادُ الأمثال والأقوال المأثورة والعبارات المحفوظة عن العرب.

والمستنتَجُ المفيدُ ممّا نحن إزاءه هنا ما يأتي:

آ ـ غزارة المحفوظ اللغويّ عند أبي العلاء، ويصوّر هذا مبْلَغَ الدّرس والتعلُّم الذي أخذ به نفسَه، وشاء أن ينشر نتاجَه ويذيعه بين تلامذته. ويَظهَرُ أبو العلاء هنا معلّمًا للعربيّة ألفاظًا ومعاني وأساليب.

ب ـ يجمع أبو العلاء في تعليمه بين جمال الأداء وافتتان الأسلوب، وبين الدّعوة إلى كلّ ما يفضي إلى الكمال الإنسانيّ. وعلى هذا النحو، يكون داعيًا إلى سبيل العربيّة بالحكمة والموعظة الحسنة.

جـ ـ يَظهر أبو العلاء هنا معلّمًا لأدب الدّرس وأدب النفس وينتمي نتاجُه هنا بجدارة إلى ما أسميناه "الأدب المؤدّب".

٢ ـ فضاءُ النحو والصرّف:

يمثِّل النحوُ والصّرف اهتمامًا كبيرًا في جملة اهتمامات المعرّي. وتُظهِر مؤلّفاتُه وآثارُه في هذا المجال المعرفيّ أنّه عالِمٌ كبيرٌ ثابتُ القلب والقدَم في هذا

الميدان. ويجد المرءُ غير قليل من مباحث النحو والصّرف في "الفصول والغايات". ونحسب أنّ إيرادَ نموذجين من هذا القبيل كافٍ لإيضاح طبيعة تعامله مع المادّة الصّرفية:

آ ـ يقول في فصل: "ربِّ، أبلغْني هوايَ، وارزقْني منزلاً لا يلجُه سواي، مَنْ دَخلَه أَمِن، فهو كعِنْدَ، وأنا كَمِنْ، ولا تجعلْني ربّ في الصّالحين كواو الخزم، والثابتةِ في الجَزْم. وأثبتِ اسمي في ديوان الأبرار مع الأسماء المتمكّنات". غاية.

تفسير: "عِنْدَ" لا يدخل عليها من الحروف شيءٌ غيرُ "مِنْ". وقولُ العامّةِ: ذهَبْنا إلى عِنْدِه، خطأ. وزعمَ النحويّون أنّ "عِنْدَ" غيرُ محدودة لأنّها تقع على الجهات السِّتّ، و"إلى" للغاية، فامتنعت "عِنْدُ" من دخول "إلى" عليها؛ لأنّ في "إلى" بعضَ التخصيص.

"واوُ الخَزْم" هي التي تُزاد في أوّل بيت الشِّعر، ويكون الوزنُ مستغنيًا عنها، وأكثرُ ما يزيدون الواوُ والفاء وألفُ الاستفهام للحاجة إليهن...

و"الواوُ" الثابتةُ في قولك للواحد: "لم يغزو"، وإنّما تثبتُ ضرورةً في الشعر كقوله:

هجـوتَ زَبّـانَ ثـمّ جئـتَ معتـذرًا مـن هَجْـوِ زَبّـانَ، لَمْ تهجـو ولَمْ تَـدَعِ

فالمتقدِّمون من البصريّين يجعلون الفعلَ في هذا ممّا بُلِغ به الأصْلُ في الضرورة؛ لأنّ أصْلَ "يهجو" أن يكونَ مضمومَ الواو؛ لأنّه في وزن "يقتُلُ"؛

فيقدِّر الشاعرُ أنّ الواوَ مضمومةٌ في حال الرّفع فيسكّنها في حالِ الجزم ويثبتها.

وكان أبو عليٍّ الفارسيُّ يرى في مثل هذه الواو التي في قوله "لم تهجُو" أنها غيرُ الواو التي في قولك "هو يهجو"، وأنّها زيدتْ للضرورة كما زيدت الياءُ في قولِ الشاعر:

وسواعيدَ يختلينَ اختلاءً كالمغالي يطِرْنَ كلَّ مَطيرِ

وكذلك الياءُ عنده في قراءة ابن كثير في قوله تعالى: "إنّه مَنْ يتّقي ويصبرْ" ليست الياءَ التي في قولك: "هو يتّقي ويَصْبِرُ"؛ وإنّما هي ياء مجتلَبةٌ لتمكين الحركة. وكذلك يرى الياءَ في قول الشّاعر:

ألَمْ يأتيكَ والأنباءُ تنمي بما لاقتْ لبُونُ بني زيادِ

والمذهبُ القديمُ أنّه بَلَغ بها الأصْلَ فقال في الرّفع: يَأْتِيُكَ"، وأسكنَ الياءَ في الجزم. والأسماءُ المتمكّناتُ هي التي لا يلحقها علّة" (الفصول والغايات، ص ١٢٢ ـ ١٢٤)

ب ـ ويقول في فصْلٍ آخَر: "خالقي، لا أختارُ شَبَهَ الظّالمين؛ فإنّ الشيئَيْنِ يتشابهانِ فينقلهما التشابهُ إلى الاتّفاق؛ كإنّ المكسورة المشدّدة، أشبهتِ الأفعالَ فجاء بَعْدَها اسمانِ؛ آخِرُهما كالفاعِلِ، وأوّلهما كالمفعول. وكذلك ما قاربَها من الأدوات.

لا تجعَلْني، ربِّ، معتلاً كواوِ "يقُومُ"، ولا مُبْدَلاً كواو "مُوقِن" تُبدلُ من

الياء، ولا أُحبُّ أن أكون زائدًا مع الاستغناء، كواو "جَدْوَل" و"عجوز". فأمّا واوُ "عَمْرو" فأعوذُ بكَ، ربَّ الأشياء، إنّما هي صورةٌ لا جَرْسَ لها ولا غَناءَ، مُشبِهُها لا يُحسب من النّسمات. غاية.

تفسير: "إنّ" يشبِّهونها بالفعل الذي يتقدّم مفعولُه على فاعله؛ مثل: ضرَبَ زيدًا عَمْرٌو. وما قاربَها من الأدوات مِثْلُ ليتَ ولعلّ، وما أشبههما.

و"واو" جدْوَل وعجوز زائدتانِ؛ لأنّهما من الجَدْل والعَجْز" (الفصول والغايات، ص ١٤٢).

وأبرزُ الملامح التي يخال المرءُ أن عليه أن يسجِّلها في المقام الذي نحن فيه ما يأتي:

١ ـ أنّ أبا العلاء مُحيطٌ إحاطةً واضحة المعالم بتاريخ النحو والصّرف ومدارسهما ومذاهب النحاة فيهما ومباحثهما الأساسية والفرعية.

٢ ـ أنّه يقتلُ القضايا بحثًا ومناقشةً وتعليلاً، ويعرض لوجهات النظر المتعدِّدة في القضية الواحدة، وهذا من شأن المعلِّم الحريص على إيصال علمه إلى الآخرين، الذي يرى فيه مِرْقاةً إلى الفوز والفلاح في المآل.

٣ ـ أنّه لا يرى أيّ تباعدٍ أو تنافرٍ بين حِسِّ الدّين وحِسّ الدّنيا، بل يرى أنّ تعليمَ العربيّة وعلومِها والارتقاءَ بها ممّا يقرِّب إلى الله زُلفى. وهذا مظهرٌ جليّ لما أسميناه "الأدبَ المؤدِّب".

٤ ـ أنّه يقدِّم قضايا العِلْم المجرَّدةَ الجافّةَ في قالب الحِكْمة الإيمانيّة التي يكون فيها عيارُ العقل وميزانُه في الفؤاد، وفق تعبير العلّامة محمّد إقبال.

٥ ـ أنّ عَقْلَ أبي العلاء المختزِنَ لقدرٍ هائل من العلوم والمعارف والمباحث قادرٌ على استحضار المتباعدات والمختلفات وجَمْعها في موضع واحد، كالذي نجده مثلاً في حديثه عن "الواو" بأنواعها المختلفة.

٣ ـ فضاء العروض والقوافي:

تشهد آثارُ أبي العلاء بمحصول غزير من مباحث علم العَروض والقوافي. ثمّ في "الفصول والغايات" خاصّةً تزحم عينَ القارئ قضايا العروض والقافية ومباحثُها. ونقدِّم ههنا مثالَيْن اثنين من جملة كثيرٍ انطوى عليه الكتاب:

آ ـ يقول في فَصْل: "ألتفتُ إلى ذنوبي فأجدُها متتابعةً كحركات الفاصلة الكبرى وأستقبلُ جرائمَ تترى طِوالاً كقصائد الكميتِ الأسديّ، مختلفةَ النَّظمِ كقصيدتي عَبيدٍ وعَديّ. وأجدني ركيكًا في الدّين ركاكةَ أشعار المولَّدين، سبقتْهم الفصاحةُ وسبقوا أهْلَ الصّنعة. وأعمالي في الخير قِصارٌ كثلاثةِ أوزانٍ رفضَها المتجزّلون في قديم الأزمان. ولابُدّ للوَتِدِ من حَذّ، والسّبب من جَذّ. ورُبَّ فَرِح طُويَ طيَّ المنسرح. فارحَمْني، ربِّ، إذا صِرْتُ في الحافرة كالمتقارَبِ وحيدًا في الدّائرة، وهجرني العالَمُ هَجْرَ النّونِ العُجُمات. غاية

تفسير: الفاصلةُ الكُبرى أن تجتمع في الشعر أربعةُ أحرف متحرّكة وبعدها

حرفٌ ساكن، وذلك أكثر ما يجتمع في الشّعر من المتحرّكات. وبعضُهم يسمِّي الفاصلة الكبرى "الفاضلةَ" لزيادتها في الحركات. والفاصلةُ الصُّغرى ثلاثةُ أحرف متحرّكات بعدهنّ ساكن.

الكميتُ معروفٌ بتطويل القصائد. وقصيدةُ عبيد:

ـ أقفرَ من أهله ملحوبْ ـ

ووزنُها مختلفٌ، وليست موافقةً لمذهب الخليل في العروض. وقصيدة عَديّ ابن زيدٍ:

قد حانَ أن تَصْحُوَ لو تُقصِرْ وقد أتى لِما عهدْت عُصُرْ

والثلاثةُ الأوزان المضارعُ والمقتضَبُ والمجتثُّ؛ وقلّ أن توجد في أشعار المتقدّمين. ..." (الفصول والغايات، ص ١٣١ ـ ١٣٥).

٢ ـ ويقول في فصل آخر: "ربِّ، وألبسْني من عَفْوِكَ جَلالاً، مُرفَّلاً يومَ القيامةِ مُذالاً، أختالُ بين عبادك فيه كسابغ الكامل وأخيه، مخلَّدًا في العيشِ الرّفيغِ، تامًّا أُلحِقَ بتسبيغٍ، كرابعِ الرَّمل، مُراحًا ليس بالمستعمَلِ. ولا تَنْهَكْ، ربِّ، عملي فيصبحَ كخامسِ الرَّجَز، قلّ حتّى ذلَّ وعَجَزَ. أشكرُك بغير تشعيث، فِعْلَ اليشكريِّ بالوزن الحثيث، وإنّ عنترةَ هَيْنَمَ، فقال:

ـ هل غادر الشعراءُ من مترنّم ـ

وإني سائلُك: هل أبقتِ السّيّئاتُ عِندكَ موضعًا للحسناتِ. غاية.

تفسير: في الكامل ضَرْبٌ يُقال له "المرفَّلُ"، وهو السّادسُ، مِثل قولِ الحطيئة:

ولقــــــــد ســـــــــبقتَهُمُ إليّ ـ فلِـــمْ نَزَعْـــتَ وأنـــت آخِـــرْ

وترفيلُه أنّه زِيد على الجزء الرّابع منه، وهو ضَرْبُه، حرفان من الجزء الذي يليه فصار "مُتَفَاعِلَاتُنْ" وبعْدَه الضّربُ السّابع، وهو المُذالُ، زِيد عليه حرفٌ ساكن فصار "مُتَفَاعِلَانْ"، مثل قوله:

جَـــدَثٌ يكـــونُ مُقامُـــه أبــــدًا بمختلِــــفِ الرّيـــاحْ

..." (الفصول والغايات، ص ١٣٧ ـ ١٣٨).

ويلفتُ الانتباهَ فيما عرضنا من تعاطي المادّة العروضيّة عند أبي العلاء ما يأتي:

١ ـ أنّه يتّخذ الدّعاءَ والسُّؤالَ مدخلاً إلى المادّة العروضية. وربّما يكون صحيحًا هنا زَعْمُ أنّ المصطلحاتِ العروضيةَ احتلّت من نفس أبي العلاء كلَّ الزوايا، فما كان منها إلّا أن تتدفّق عند أوّل التفاتة، وتبرز عند أوّل إثارة.

٢ ـ أنّ استغلالَ المادّة المصطلحية العروضيّة في الدّعاء والاسترحام لا يعطي أيّ انطباعٍ بالتكلّفِ والتعمّل وحَمْل النفس على المكروه، بل يمضي تقديمُ المادّة على نحو يروق النفسَ ويبهجُ الحسَّ ويعين في التحصيل.

٣ ـ أنّ أبا العلاء محيطٌ إحاطةً لافتةً للنظر بتاريخ الشعر العربيّ منذ أقدم عصوره إلى زمانه، مُلِمٌّ بمذاهب الشّعراء، مستظهِرٌ للقوافي العروضيّة والشواهد الشعريّة الممثّلة لها.

٤ ـ أنّ تقديم المادّة العلميّة العروضيّة لا ينال من المستوى الأدبيّ الرّفيع الذي يحرص المؤلّف على تقديم أمثلته ونماذجه. وإنّه في الفصلين كليهما كنّا أمام متنَيْن أدبيَّين غايةٍ في قوّة السَّبْكِ ونصاعة العبارة وتلاحم الأجزاء وسهولة المخارج، وفق تعبير الجاحظ وهو يصف خير الشّعر.

رابعًا ـ دروسُ الإيمان في الفصول والغايات:

أظهرت الجزئياتُ السابقة من هذه الورقة مبلغَ احتفاء أبي العلاء بالمادّة الإيمانيّة المعبِّرة عن شخصية وَرِعة، تعرفُ قبْلَ كلّ شيء عظمةَ الخالق العظيم سبحانه وجلالَ سلطانه وامتدادَ قدرته، وتعرف في الوقت نفسه عجزَ الإنسان وضعفَه وافتقاره إلى خالقه في كلّ شيء، وقد قيل قديمًا: من عرف نفسَه فقد عرف ربّه. وقد بيّنّا قبْلُ أنّ أبا العلاء يعتقد في "الفصول والغايات" إنّ إنتاجَ الأدبِ الجميل والتأليفِ المتقن هبةٌ من الله سبحانه يبلغ بها رضاه، وذلك إذ يقول: "فهبْ لي ما أبلغُ به رضاك من الكَلِم والمعاني الغراب".

وفي مستطاعنا القولُ إنّ إبداع أبي العلاء الأدبيّ في "الفصول والغايات" يقدِّم لتاريخ الشعر العربيّ والثقافة العربيّة، على الجملة، صورةً لشخصية أبي

العلاء مختلفةً تمامًا عن الصّورة التقليدية النّمطيّة التي رُسمت له وأريد لها أن تشيع وتستقرّ في الأذهان. وسأكتفي من جملة فصول الكتاب بثلاثة نماذج إخالُها قادرةً على تقديم تصوّر لما شئتُ تقديمَه في هذه الورقة من انحياز أبي العلاء إلى ما أسميناه "الأدبَ المؤدّبَ"، الذي قلنا إنه يجمع بين أدب الدّرس وأدب النّفس:

١ ـ يقول في فَصْلٍ: "خوفُ اللهِ مَعاقِلُ الأَمْنِ، والحُكْمُ لَهُ في العاقبةِ والمبتدأ. لا يَرِدُ عليه عَجَبٌ، وكيف يعجبُ من شيءٍ خالِقُ العجائب ومبتدعُ الآزالِ؟ أيقنَ فما استفهمَ، وهل يستفهِمُ عالِمُ أسرار الفَهِمين؟ . ولا تَعْرِضُ له الأمانيُّ؛ إنّما تخطرُ لمن تضعفُ قدرتُه دون المراد. فليتَ جسدي من خيفته مِثْلُ الشَّنِّ وأدمعي لذلكَ شبيهةُ القَطْر. وطوبى للمُترنِّمينَ بالتسبيح ترنُّم هَزِج النّهار ، حتّى إذا النّجمُ طَلَعَ ترنّمَ بالذّكْرِ مع البعوض إعظامًا لوارثِ الوُرّاث. غاية.

تفسير: الآزالُ جمعُ أَزَلٍ، وهو الدهرُ. وهَزِجُ النّهارِ الذّبابُ. والبعوضُ البقُّ. (الفصول والغايات، ص ١٦٩).

٢ ـ ويقول في فصل آخر: " ما حَرَسَ ربُّك فلا مُحْتَرَسَ له، وما حَفِظ أَمِنَ الضياعَ فهو حفيظٌ. السّماءُ متى أَمَرَ مطيعةٌ له، والأرضُ تقبلُ أوامره، والنّجومُ تابعةٌ إرادتَه. يكلأ عبادَه بعين كبُرت عن القذى، وغنيتْ عن الإثمِدِ، وشَرُفت

أن تهجع أبدا.

حمدًا لكَ إلهي؛ لا أعلَمُ وقتَ إسكانِكَ لي في دارِ البلاء وقد عشتُ فيها ما شئتَ، وأعيش ما تشاء، وأنا شاكٍ إليكَ أثقالَ الزَّمَن، فإذا قضيتَ عنها الرّحلةَ فأعنّي على تلك الغُصَصِ والغمرات فإنّي منها فَرِقٌ، وبي من الحياة مَلَلٌ. على أنيّ أرفُلُ في ثياب نِعَمِك جُدُدًا. أشكرُك وأنا مُقِرٌّ بالعجز عمّا يجب لك. خلقْتَني ضعيفًا فعبدتُّك عبادةَ الضعفاء، ولم أُلْفَ من المآثِمِ عَبِدًا. أنا برحمتكَ مكلوءٌ، وخيرُك عليَّ مُسْبَلٌ يَرِدُ بالغداة والعشيّ...

تفسير: المُحتَرِسُ السّارق؛ ومنه"لا قَطْعَ في حَرِيسة الجبَلَ" أي الشّاةِ التي تُسرق منه. والعَبِدُ الأنِفُ..." (الفصول والغايات، ص ١٩٦ ـ ١٩٧).

٣ ـ ويقول في فصل ثالث: "أدعوكَ وعمَلي سيّئٌ ليحسُنَ، وقلبي مُظلمٌ لكي ينير. وقد عدَلْتُ عن المحجّة إلى بُنيّاتِ الطريق، وأنتَ العَدْلُ ومن عَدْلِك أخافُ. يا مَنْ سَبّحَ له زُرْقةُ الأُفُق وزُرْقةُ الماءِ وحُمْرَةُ الفجرِ وحُمْرَةُ شَفَقِ الغروب. وإن كان الدّمعُ يُطفئ غضبَكَ فهَبْ لي عينَيْن كأنّهما غمامتا شَتِيٍّ تَبلانِ الصّباحَ والمساء، وارزقْني في خوفِك برَّ والدي وقد فادَ، برُّه إهداءُ الدّعوةِ له بالغدوّ والآصال. فأَهْدِ، اللهمّ، له تحيّةً أبقى من عُرْوة الجَدْب وأذكى من وَرْد الرّبيع، وأحسنَ من بوارق الغمَام، تُسفرُ لها ظُلمةُ الجَدَث ويخضرّ أغبرُ السَّفاةِ ويَأْرَجُ ثرى الأرض، تحيّةَ رجُلٍ للُّقْيا ليس بِراج. غاية

تفسير: بُنَيّاتُ الطّريق الطُّرقُ الخفيّة يُضَلُّ فيها. والشَّتيُّ مطرُ الشّتاء. وفادَ ماتَ. والسَّفاةُ ترابُ القبرِ، وجمعُه سَفًى، وكلُّ تُرابٍ سَفًى؛ قال أبو ذؤيب:

فلا تلمسِ الأفعى يداكَ تُريدُها ودَعْها إذا ما غيّبتْها سَفَاتُها

(الفصول والغايات، ص ٢٥٩).

وما يخالُه المرءُ جديرًا بالملاحظة في هذه النماذج للغرض الذي نحن إزاءه ما يأتي:

١ ـ الرّوحُ الشفّافُ الوَرِعُ الذي تمتّع به أبو العلاء. وهو رُوحٌ يقظٌ جدًّا لعظمة الخالق العظيم سبحانه، ولصيرورة الإنسان إليه في نهاية المطاف.

٢ ـ إحساسُ أبي العلاء القويُّ بالنِّعَم التي يغدقها المولى سبحانه عليه وهو في هذه الدّنيا.

٣ ـ إلحاحُه على تقصيره في الإتيان بما يرضي ربّه، ودعاؤه الملِظُّ أن يهيّئه خالقُه لكي يكون عابدًا بكلّ ما أوتي من قدرة.

٤ ـ يربط أبو العلاء ربطًا قويًّا بين الارتقاء الرّوحيّ والأداء اللغويّ العالي؛ ويقدِّم في فصوله النثرية شاهدًا قويًّا على الصّلة القوية بين الحساسيّة الدّينية والحساسيّة الفنيّة الأدبيّة.

٥ ـ يقدِّم أبو العلاء صورةً مشرقة للأدب المؤدِّب الذي يسمو بالنّفس ويرقّي الحسَّ ويرتقي بالإنسان في مدارج الكمال الإنسانيّ.

٦ ـ يقال عن مؤلّفات الجاحظ إنّها تُعلِّم العقلَ أوّلاً والأدبَ ثانيًا، وفي مقدرونا أن نقول إنّ تصانيف أبي العلاء تعلِّم العقلَ والأدبَ والتديّن الإيجابيّ النظريّ والعمليّ؛ وتعلّم أيضًا العربيّة في مستوياتٍ عليا من فصاحتها وقوّة بيانها.

خامسًا ـ الكلمة الأخيرة:

أظهر لنا البحثُ والتأمّل الذي تقدّمت جزئيّاتُه أنّ أبا العلاء كان في إملائه "الفصولَ والغايات" على طلّابه محكومًا بقَصْدٍ ثُنائيّ تجلّى على امتداد المادّة العلميّة المقدَّمة فيما وصل إلينا من الكتاب. ويتمثّل ذلك في أنّه أراد أن يعلِّم غريبَ العربيّة وراقيَ أساليبها وقضايا تاريخها الأدبيّ والثقافيّ من خلال فصول أدبيّةٍ عالية المستوى في مضمار الفصاحة والبلاغة حمّلها مدلولاتٍ تأمليّةً إيمانيّةً مستمَدّةً من التقليد القرآنيّ والحديثيّ، ومؤسَّسةً في المقام الأوّل على تمجيد الخالق العظيم سبحانه ولَفْتِ الأنظار إلى آياته في الأنفس والآفاق. كان همَّ أبي العلاء في "الفصول والغايات" أن يعلِّم طلبةَ العِلْم مستوى عاليًا من العربيّة وثقافتها بمادّةٍ روحانيّة شفيفة قادرةٍ على توسيع الفضاء المعرفيّ الإيمانيّ عند الإنسان. ومحصِّلةُ القول هنا أنّ حكيمَ المعرّة يبدو ههنا محقِّقًا لمقولةٍ ندعو إليها منذ بعض الوقت، وهي "الأدبُ المؤدِّبُ" الذي يرتقي بالإنسان في معارج الرّقيّ الإنسانيّ.